تفسير سورة التحريم

للدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ، ويند عن تبصره » الكشاف ٠

« ٠٠٠ واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ،فلما نبأها به ، قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنى العليم الخبير ٠٠٠ »

ألقى الله تعالى ، المسألة فى هذه الآية على الصورة الاخبارية ، بيد أن أمرها غريب ، فهى تبدو ، لاول وهلة جوفاء ، قليلة المعنى،كثيرة الالفاظ :

ذلك أن معناها لا يكاد يعدو : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أسر الى بعض أزواجه حديثا فافشته ٠

ولكن هذا الذى يبدو لاول وهلة ، انما هو سطحى لا عمق فيه ٠
والآية تزخر بالمعانى النفسية :
فهى أولا ، تبين لنا أنه من الطبيعى أن يسر الانسان الى زوجه الحديث٠
وهذا المعنى واضح من صيغة الآية التى خلت من العتاب والتأنيب على هذا والتى ترشدنا الى أن الرسول الذى أدبه الله فأحسن تأديبه ، أسر الى بعض أزواجه الحديث ٠

والتى ترشدنا الى أن الرسول الذى أدبه الله فأحسن تأديبه ، أسر الى بعض أزواجه الحديث

وترشدنا ، ثانيا ، الى ناحية من طبيعة المرأة : ناحية عدم الاحتفاظ بالاسرار ٠

وسنرى ، فيما بعد ، أن مؤاخذة القرآن على افشاء السر ، وقسوته فى هذه المؤاخذة ، تبين أن الاحتفاظ بالسر ، وان كان صعبا ، فانه ليس من المستحيل ، اذ لو كان مستحيلا لما كانت المؤاخذة

وترشدنا ، ثالثا ، الى أن الله تعالى ، معنى بالرسول كل العناية ٠
والى أن رعايته له تصل الى درجة أن يظهره على انباء زوجته بالسر ٠
ولم يخبر الله بذلك لمجرد التكريم لرسوله، وانما ليزداد المؤمنون ايمانا على ايمانهم ٠

أقول : ان الآية ترشد الى مكانة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهى ما هى ، لم تصرف زوجه عن افشاء السر ٠

فاذا كان الله معنيـــا بذلك ، فانه ، من باب أولى ، معنى بكل ما يقوله الرسول ، وما يتحدث به : مما يتصل بالشئون الدينية ٠

وتؤكد أن علمه يتصل بالصغيرة والكبيرة :

« ٠٠٠ **ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمســة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بمـــا عملوا يوم القيـــامة ٠ ان الله بكل شيء عليم** » ، « ٠٠٠ **لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الارض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين** »

أسر النبى ، اذن ، الى بعض أزواجه حديثا ، فضاق صدرها باخفائه ـ كما هو الشأن فى كثير من الناس ، وكما هو معروف فى الاكثرية العظمى عند النساء خاصة ـ فناجت به احدى الزوجات الاخريات ٠

وسياق الآية ، والآيات التى تليها : يدل على أنهما قد أخذا يديران الامر ، فيما بينهما ، على صورة غير بريئة، بدليل اشتداد الله تعالى ، فى مؤاخذتهما

فأخبر الله رسوله بالامر ، وبما يدبران من شأن

ولكن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان لطيفا رقيقـــا ، فاقتصر فى الحديث مع زوجه على افشائها السر ، وأعرض عما دبرتا من مكيدة

أما اللفتة « السيكلوجية » البارعة ، فاننا نصورها فيما يلى :

هذه الزوجة أفشت السر ، ولم يكن سر شخص عادى ، انه الرســول نفسه ، وهى زوجه ، وكان من المفروض انه حينما يخبرها بهذا الافشاء أن تستذل مباشرة ، وتستخزى وتستغفر ، وتتوب وتنيب ٠

وكان بمقتضى هذا أن يكون السياق :

فلما نبأها به استخزت واستغفرت

ولكن الآية هى : « **فلما نبأها به ، قالت : من أنبأك هذا ؟** »

وهى ، على هذا النسق القرآنى الكريم ، تصور أبرع تصوير ، طبيعة المرأة : لقد فوجئت بعلم الرسول بالسر ، فاتجه ذهنها مبـــاشرة الى منبىء بشرى ، فثارت ، وفى ثورتها عزب عنها وضع الرسول وصلته بالله ، وفى ثوان قدرت فى نفسها ، التخلص من الادانة بالتكذيب ٠

كانت تقدر فى نفسها ، فى لحظة خاطفة ، أن المخبر للرسول : فلان أو فلانة يقول الطبرى : « ولم تشك أن صاحبتها أخبرت عنها » ٠

وكان الجواب فى نفسها ،أيضا ، حاضرا : انه ، أو انها كاذبة ٠

وبذلك تتخلص من المسئولية ٠

وجاء الجواب صارما هادئا :

(نبأنى العليم الخبير) - « خبرنى به العليم بسرائر عباده ، وضمائر قلوبهم ، الخبير بأمورهم ، الذى لا يخفى عنه شىء » ...

فكان « الدش » البارد ، وكان الاستخزاء البالغ ، وكانت العودة الى الاعتراف بالواقع :

أعنى : افشاء السر ، وعدم البراءة ، والاستخزاء !!!

ثم يقول الله تعالى : «ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»

ثم يلتفت الله سبحانه الى المتآمرين - فى صورة مفاجئة - فيقول تعالى: **(ان تتوبا الى الله ...)** .

وكنا نتوقع انه يقول بعد ذلك : فانه يتوب عليكما أو فانه يغفر لكما أو فانه يرحمكما أو فانه يعفو عنكما ... أو شيئا يشبه ذلك ، ولكن القرآن الكريم سكت عن أمثال هذا ، وقال فى عنف عنيف : فقد صغت قلوبكما ، أى فقد زاغت قلوبكما ، فقد أثمت قلوبكما . ان تتوبا الى الله فقد فعلتما ما يستوجب التوبة من الاثم والزيغ ... ان تتوبا الى الله فليس ذلك منكما تفضلا وتكرما وعملا تستحقان عليه المدح أو الخيلاء ... ان ذلك منكما محاولة لرد الامر الى نصابه - مجرد محاولة قد تقبل وقد لا تقبل - وتكفير عن جرم ارتكبتماه .. أن تتوبا الى الله فهو اغتسال من خطيئة ، وكان الطريق الامثل ألا ترتكب الخطيئة ، وذلك هو طريق الصادقين .

كل ذلك من معانى تشير اليه هذه الكلمات القليلة ...

وشىء آخر فى هذه الكلمات : هو التعبير بالجمع فى كلمة قلوب ، وكان مقتضى السياق التثنية : قلباكما ، ولكن قلب كل منهما فى تحوله ، وعدم ثباته على حب الرسول - المثل الأعلى للانسانية - وتأرجحه بتأرجح البواعث من غيرة أو غيرها ... كل هذا جعله بمثابة قلوب عدة ، وليس ذلك من أوصاف المدح والثناء ...

أما اذا اتخذتما نهج الضلال ، فتماديتما فى غيكما ، وتعاونتما على اساءته ، ولم تتوبا ... اذا فعلتما ذلك ، فاعلما أن محمدا صلوات الله عليه ليس ممن يستهان به فمنزلته وصلت من السمو والرفعة ، الى درجة أن الله هو وليه وناصره ، وكذلك جبريل ، وكل صالح من المؤمنين ، والملائكة بعد كل ذلك أعوان له ونصراء .

والمفهوم النفسى لوحى الآية الكريمة : هو أنه اذا كان مع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، كل هؤلاء فان الباقى للمتآمرين ابليس وأعوانه ومنافقوا العرب ومشركوهم . ان كفة محمد صلى الله عليه وسلم فيها أعوان الخير

والرشاد والصلاح ، أما كفتهما - اذا لم يتوبا ويرجعا الى الله - ففيهما أعوان الشر والفساد .

ولعلك تشعر معى أن الاسلوب الكريم يسفر بصورة لا مزيد عليها عن ضآلة المتآمرين الضئيلة فى مقابل السمو السامى للرسول الكريم عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم .

عبد الحليم محمود

« الحديث موصول »

التعرف لمذهب أهل التصوف

كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للامام أبوبكر الكلاباذى من أعلام القرن الرابع الهجرى ، يعتبره أهل المعرفة والذوق من أعظم الآثار الصوفية ، ومن أجلها وأعظمها نفعا فى تاريخ التصوف وعلومه وآدابه وأذواقه ومناهجه ورجاله ، حتى لقد قال علماء التصوف القدامى - لولا التعرف لما عرف التصوف -

ومع جلال هذا الكتاب ومكانته فقد نفد من الاسواق ، ولم يعرض عرضا علميا يليق به .

ولقد قام الكاتبان الصوفيان الكبيران ، الدكتور عبدالحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، بتحقيقه على أصول خطية جديدة ، واتبعا منهجا علميا مبتكرا ، فى عرضه ، والتمهيد له ، والتعقيب عليه ، والترجمة لرجاله ، وأوشكا أن ينتهيا من طبعه .

يصدر هذا الكتاب قريبا ، فى غلاف أنيق ، وطبع فاخر ، وثمن النسخة عشرون قرشا ، ويطلب من المكتبات العامة ، ومن مشيخة الطرق الصوفية، وادارة مجلة الاسلام والتصوف